الصَّـــــوتُ والصَّـــــدَى

محمد جميل شلش

إلى أبطال المقاومة في جنوب لبنان لمناسبة انتصارهم التاريخيّ

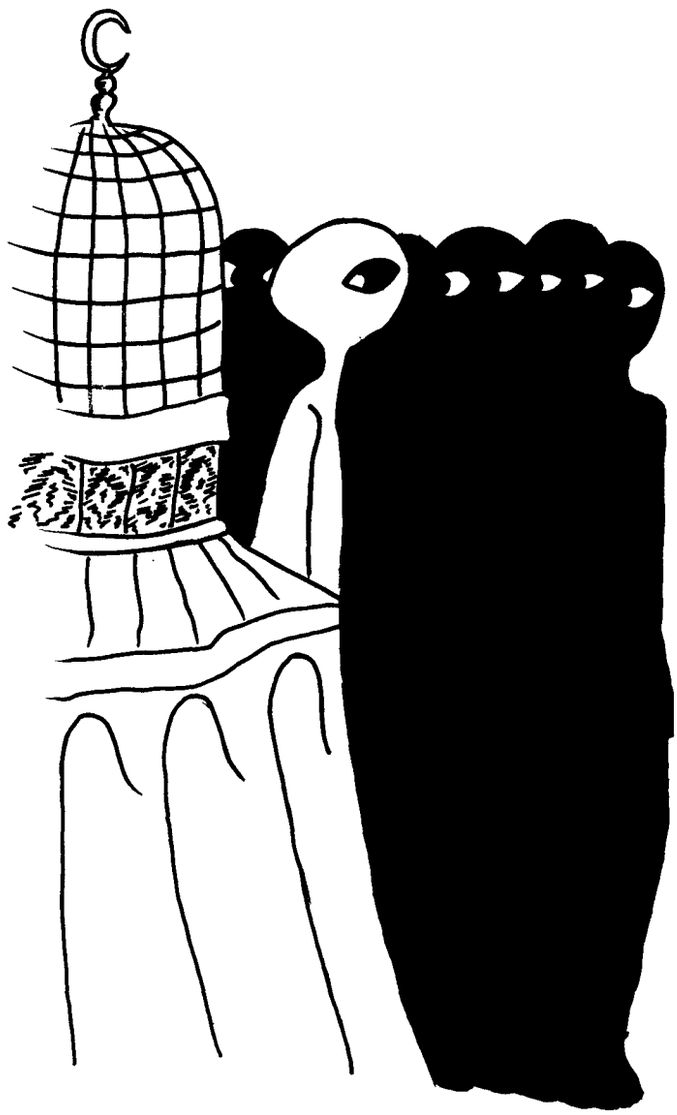

حينَما استيقظتُ منْ نومِ الخلودْ
هَالَنِي صَوْتٌ يَهُزُّ المشْرِقَيْن
وَيُدَوِّي في ضَرِيحِي كالرُّعُودْ:
والحطِّين وَبَدْرٍ وَحُنَيْنْ
فَقَدَ الإسْلامُ أُولَى الْقِبْلَتَيْن
وَاعْتَلَى المِنْبَرَ أَحْبارُ الْيهودْ.

حينَما استيقظتُ زَلْزَلْتُ الضَّرِيحَا
وَتَوَضَّأْتُ بِفَيْضٍ مِنْ دَمِي بَيْنَ اللُّحودْ
ثُمَّ صَلَّيْتُ لِرَبِّي رَكْعَتَيْن
وَنَسِيتُ الظَّمأَ القاتِلَ وَالنَّحْرَ الذَّبِيحا
وَنَسِيتُ الرَّأْسَ محمولاً على رُمحِ الجُحودْ
وَتَنَاسَيْتُ عُهُودَ الأَهْلِ بَيْنَ الضَّفَّتَيْن
وَتَنَاسَيْتُ السَّبَايا وَالرَّزَايا وَالوُعودْ.

حينَما استيقظتُ ناداني الصَّدَى:
يا ابْنَ بِنْتِي جاوَزَ الظُّلْمُ المدَى
وَالرَّدَى أَهْوَنُ مِنْ ظُلْمِ العِدَى.
يا ابْنَ بِنْتِي... نادِهِمْ باسْمِي جَمِيعاً
قَبْلَ أَنْ تَغْرُبَ عَنْ صحرائِهِمْ شَمْسُ الهُدَى.

عِنْدَها... أَسْرَيْتُ مِنْ أَرْضِ الْفِدا
دُونَما رَأْسٍ أُناديهِمْ ذَبِيحا:
لا تُهِينُوا أَحْمدا
لا تُهِينُوا الْخَالِدَ الْفَذَّ الْمَسِيحا
لا تُضَيِّعُوا الْقُدْسَ فِي لَيْلٍ أَرِيحا
لا تُضِيعُوها سُدى.

عِنْدَها... أَسْرَيْتُ بِاسْمِ اللَّهِ في كُلِّ ضَمِيرْ
عِنْدَها... أَسْرَيْتُ في كُلِّ مَدَى

صِرْتُ صَوْتاً وَصَدى عَبْرَ الْعُصُورْ
طُفْتُ مِنْ مَكَّةَ أَجْدادِي...
إلى كُوفَةِ أَحْفادِي...
إلى قُدْسِ الْبُراقْ.
شِفْتُ مَا شِفْتُ:
طَوَاوِيسَ ازْدِهاءٍ وَغُرورْ،
وَمُغَنِّينَ.. وَطَبّالِينَ زُورٍ وَنِفاقْ،
وَجَماهِيرَ ازْدِلافٍ وَارْتِزَاقْ،
حَوْلَ مَأْساةٍ مُرِيدِيها تَدُورْ.
شِفْتُ في الخَضْرَاءِ والغَبْرَاءِ.. أَشكالاً أَفانِينَ:
فُثُوّاراً وَتُجّاراً... سَواءً بِسَواءْ
وفدائِيِّينَ أَحْراراً... صُقُوراً وَنُسُورْ
صِحْتُ: هَلْ فِيكُمْ أَبُو ذَرٍّ جَسُورْ؟
صِحْتُ: هَلْ فِيكُمْ «مُثَنَّى» الفَخْرِ...
هَلْ فِيكُمْ «صَلاحُ» النَّصْرْ...
هَلْ فِيكُمْ «جَمالُ» العَصْرْ...
هَلْ مَنْ يَقْتَدِي... أَوْ يُقْتَدَى؟...
صِحْتُ: جَلَّ الْمُفْتَدَى.
بُحَّ صَوْتِي...
لَمْ يُجاوِبْنِي مِنَ الكَهْفِ صَدى
لَمْ أَجِدْ تَحْتَ رَمادِ القَوْمِ آثارَ لَهَبْ
لَمْ أَجِدْ غَيرَ صَحارَى مِنْ نُحَاسٍ وَنُعَاسِ....
وَقُرَى نَمْلٍ وَمِلْحٍ...
وَذُرَى صُلْحٍ وَرَدْحٍ...
وَتَماثِيلَ... وَأَصْنامٍ... وَفَزّاعاتِ وَهْمٍ... وَلُعَبْ.
قُلْتُ: لَنْ أَجْنِيَ مِنَ الشَّوْكِ عِنَبْ.
صِحْتُ: وادُلَّ الْعَرَبْ!
صِحْتُ: واعارَ السَّجايَا الخَالِداتْ!
بُحَّ صَوْتِي... وَأَنا ظامٍ إِلَى ماءِ الفُراتْ
بُحَّ صَوْتِي... وَأَنا أَصْرُخُ بَيْنَ الإِمَّعَاتْ:
هَلْ دَلِيلٌ مُنْقِذٌ... يَزْرَعُ فِي الأَرْضِ المَوَاتْ
فِكْرَةً تُنْبِتُ نَبْعاً لا غَرَبْ؟
بُحَّ صَوْتِي يا تَماثِيلَ الْخَشَبْ
وَأَنَا أَصْرُخُ مِنْ أَلْفِ عِجافٍ:
هَلْ بَشِيرٌ صادِقٌ يُحْيِي العِظَامَ النَّخِراتْ
وَيُدَاوِي جُرْحَ مَسْلُوبٍ... وَيَشْفِي مُسْتَلَبْ؟
بُحَّ صَوْتِي يا عَرَبْ.
فالزعاماتُ غَدَتْ مَحْضَ نَسَبْ.
والبطولاتُ غَدَتْ مَحْضَ رُتَبْ.
والخيولُ العربياتُ لُعَبْ.
وَالسُّيوفُ العربياتُ خَشَبْ.
وَالرِّماحُ العربياتُ قَصَبْ.
والمغاويرُ الغَبَارى
قِطَطٌ سُودٌ لها أَلْفُ ذَنَبْ.
عَجَبٌ شَهْرُ رَجَبْ.
فَهُنا... آخِرُ حَقٍّ يُغْتَصَبْ.
وَهُنَا... آخِرُ مَغْلُوبٍ يُصافِي مَنْ غَلَبْ.
وَهُنَا... آخِرُ مَسْلُوبٍ يُدَاجِي مُسْتَلَبْ.
وَهُنَا عارٍ... وَيُخْفِي عُرْيَهُ في وَرَقِ التِّينِ...
هُنَا شَعْبُ أَسارى خائفينْ...
وَهُنَا شَعْبُ حَيارَى ضائِعِينْ...
وَهُنَا شَعْبُ سَكارَى نائِمِينْ...
وَهُنَا سِرْبُ ضِباعٍ خَائِبِينْ...
وَهُنَا... ما بَيْنَ رُومٍ... وَصَهايِينَ ـ عَرَبْ

حَلَبٌ مَفْجُوعَةٌ... تَأْكُلُ ثَدْيَيْهَا حَلَبْ
وملايينُ على الأعْتابِ.. والأبْوَابِ...
تَسْتَجْدِي مَنِ اسْتَعْدى.. وعادَى.. ونَكَبْ.
عَجَبٌ شَهْرُ رَجَبْ.
عَجَبٌ حالُ الْعَرَبْ.

ذَبَحُونِي قَبْلَ أَلْفٍ في العراقْ
حاصَرُونِي بَعْدَ أَلْفٍ في العراقْ
ضيَّعُونِي في أَرِيحا
قَتَلُونِي في جَنِينْ
شَرَّدُونِي في مَنافِي اللاجِئِينْ
علَّقُوا رُوحي عَلَى جُلْجُلَةِ الْعَصْرِ مَسِيحا
ثُمَّ قالُوا: مَاتَ في الطَّفِّ ذَبِيحا
وَأَنا مازِلْتُ فِي الْقُدْسِ شَرِيدْ
وَأَنا مازِلْتُ في الشَّام وفي مِصْرَ شَرِيدْ
وَأَنا فِي كُلِّ أَرْضٍ.. لَمْ أَزَلْ ذاكَ الشَّرِيدْ
وأَنا أُبْعَثُ فِيكُمْ كُلَّ يَوْمٍ...
وَأَنا يَذْبَحُنِي في كُلِّ يَوْمٍ
أَلْفُ شِمْرٍ مارِقٍ... أَلْفُ يَزِيدْ،
أَلْفُ مُرْتَدٍّ بَدَا رَأْساً كَبِيراً...
وانْتَهَى في آخِرِ الشَّوْطِ ذَنَبْ.
عَجَبٌ حالُ الْعَرَبْ.
غَلَطٌ كُلُّ ادِّعاءاتِ العَرَبْ.
فَأَنا لَمْ أَقْضِ في الطَّفِّ ذَبِيحا
أنا لَمْ أَبْرَحْ طَرِيدْ
قَتَلُونِي في أَرِيحا
ثُمَّ سَمَّوْنِي شَهِيدْ

وَاسْتَعارُوا اسْمِيَ قِناعاً لِلْعَبِيدْ
وَاسْتَباحُوا سِفْرَ أَمْجَادِي فَقَطْ.
شَطَطٌ يا سادَتِي... هذا شَطَطْ.
غَلَطٌ هذا الَّذِي تَرْوُونَ عَنْ مَلْحَمَةِ الطَّفِّ.. وَعَنِّي.
غَلَطٌ.. يَكْتُبُهُ الأَحْفَادُ.. لَمْ يَخْطُرْ بِظَنِّي.
غَلَطٌ هذا اللَّقَبْ.
غَلَطٌ أَنْ تَحْبِسُوا ذِكْرَايَ في مَوْكِبِ حُزْنِ
غَلَطٌ أَنْ تَحْبِسُونِي فِي مَآسِي كَرِبلاءْ
كَرْبلائي أَيُّهَا الأَحْفادُ... يا خَيْبَةَ ظَنِّي.. يا عَرَبْ
كَرْبَلائِي لَمْ تَكُنْ مَأْتَمَ حُزْنٍ وَبُكَاءْ
كَرْبَلائِي لَمْ تَقُمْ كَيْ تُصْبِحُوا بَعْدِي أَسَارى غُرَبَاءْ
كَرْبَلائِي لَمْ تَعُدْ مَحْضَ ادِّكَارٍ لِشَهِيدِ الشُّهداءْ
كَرْبَلائِي لَمْ تَعُدْ وَقْعَةَ عاشُوراءِ وَالطَّفِّ فَقَطْ.
غَلَطٌ يا سادتي... هذا غَلَطْ.
غَلَطٌ هذا النَّسَبْ.
فَانْزَعُوا أَقْنِعَةَ الزَّيْفِ وأَثْوابَ الرِّيَاءْ
وَاخْلَعُوا كُلَّ تَماثِيلِ الْخَشَبْ.
كَرْبَلائِي لَمْ تَعُدْ أَرْضاً تُسَمَّى كَرْبلاءْ
كَرْبَلائِي وَطَنٌ... يَمْتَدُّ بَيْنَ الْمَاءِ والماءِ...
وَعَاشُوراءُ حُزْنِي.. كُلُّ أَحْزانِ الْعَرَبْ.
غَلَطٌ قَوْلُ رَجَبْ.
غَلَطٌ فِعْلُ رَجَبْ.
غَلَطٌ × غَلَطٍ.. مَحْضُ غَلَطْ.
نُقَطٌ × نُقَطٍ.. مَحْضُ نُقَطْ.
عَنْتَرِيَّاتُ أَبِي زَيْدِ الْهِلالِيِّ.. نُقَطْ.
وَالضَّحَايَا.. وَالسَّبَايا.. وَالرَّزَايا.. وَالحُروبْ
وَالشِّعاراتُ.. وَتَحْرِيرُ.. وَتَوْحِيدُ الشُّعُوبْ

وَصَوَارِيخُ الإذاعاتِ.. وَآلافُ الْخُطَبْ

في يَسارِ الرَّقْمِ مازالَتْ.. نُقَطْ.

كُلُّ ما يَفْعَلُهُ الأحْفادُ مِنْ خَمْسِينَ عاماً...

مَحْضُ أَصْفارٍ... نُقَطْ

كُلُّ دُنْياكُمْ غَلَطْ.

كُلُّ مَسْعَاكُمْ شَطَطْ.

سَقَطَ الْحَاضِرُ في مُسْتَنْقَعِ الْعَصْرِ الْيَهُودِيِّ...

سَقَطْ.

سَقَطَتْ كُلُّ تَماثِيلِ الْخَشَبْ.

عجَبٌ شَهْرُ رَجَبْ.

كَذِبٌ قَوْلُ رَجَبْ.

وَبِداياتُ حَكاياهُ رَجاءٌ

وَنِهَاياتُ خَفَاياهُ رَدَى.

هكذا جَاوَبَنِي رَجْعُ الصَّدَى:

كُلَّمَا ازْدَدْنا نِداءً... كُلَّمَا ضَاعَ النِّدا.

كُلَّمَا ازْدَدْنا عَطَاءً... كُلَّما ضِعْنا سُدَى.

كُلَّما هَادٍ إِلَى خَيْرٍ هَدَى

كُلَّما حَادٍ حَدَا...

قُلْنا لَهُ: لَبِّثْ.. وَأَمْهِلْنَا غَدَا.

ساءَتِ الحَالُ...

وَسَاءَ الْمُبْتَغَى.. وَالْمُنْتَهَى.. وَالْمُبْتَدا.

فَامْتَشِقْ ثانِيَةً سَيْفَ الهُدَى

وَتَوَحَّدْ بِالْفِدائِيينَ.. في أَرْضِ الفِدا..

وَتَوَحَّدْ بالجنوبيين رُوحاً مُنْجِدا...

هكذا جاوَبَنِي رَجْعُ الصَّدَى.

هكذا جَاوَبَنِي رَجْعُ الصَّدَى.

بغداد

اقرأ في العدد القادم:

- مثقفون ومناضلون أميركيُّون سود (IV): كورنل وست (إعداد وترجمة: سماح إدريس وأيمن حنا حدّاد)

- سهيل إدريس: دراسة (سامي سويدان،...) وحوار (مع يسري الأمير)

- أبحاثاً: لمحمد صابر عبيد،...

- قصصاً: لهدية حسين، تغريد الغضبان،...

- قصائد: لعبد الرزاق عبد الواحد، حمد شهاب الأنباري، خالد معدّل، مصطفى أحمد النجار، طارق أبو عبيد...